

## مقدمة

لوصية القاضي أبي الوليد الباصي لولده

ابتدأ الباجي في وصيته التي تقدم لها في هذا العدد — من مجلة المعهد المصرى بمطريد — بمقدمة قصيرة متناسبة مع حجمها الصغير . . وقد أعرب فيها عن السبب الذي دفعه إلى إنشائها وكتابتها ، كما أنه أعرب فيها بوضوح وجلاء عن المنزلة الاجتماعية والدينية التي كانت لأسلافه ، طمعاً منه في أن يسير أولاده على نهج أسلافهم وأجدادهم من قبل .

وقد قسم المؤلف وصيته إلى قسمين : القسم الأول تناول فيه الشؤون العامة للدين ، وما يتطلبه هذا الدين من واجبات أو التزامات ، وقد جعل المعرفة والعلم أساساً لتلك الواجبات والالتزامات . وقد تناول في هذا القسم الكلام على نقط كثيرة ، سنتنصر في هذه المقدمة على ثلاث منها فقط ، لأنها ربما تكون مفيدة لمن تعينهم الدراسات الأندلسية ، وخصوصاً الناحية العقلية والناحية الفقهية ، والنقط الثلاث هي : (١) ظاهرة اعتناق مسلمى الأندلس للمذهب المالكي ، (٢) دراسة علوم القدامى — أعنى المنطق والفلسفة — (٣) دراسة الفلك والتنجيم .

فأما ما يتعلق بالنقطة الأولى فقد ابتدأ أولاً بشرح السياسة التعليمية التي يجب على الطالب تتبعها ، بل نَوَّه بها تنويهاً كبيراً واعتبرها أفضل سياسة في التعليم ، ويُجمل هذه السياسة في حفظ القرآن الكريم ، وحفظ الحديث النبوي الشريف ، والتعرف على ما كان صحيحاً مذهباً وما كان منه غير صحيح ، ودراسة علم أصول الفقه الذي هو أصل لمعرفة القرآن ومعرفة الحديث ، ويوجب على الطالب أن يتدرب تدريباً سليماً على معرفة طرق النظر وتصحيح الأدلة وإقامة البرهان .

وفي الناحية الفقهية يفضل مذهب — مالك — على غيره من المذاهب الأخرى ، لأن مالكاً — في نظره — قد اجتمعت لديه الإمامتان ، وأولاهما الإمامة في الرأي ، وثانيهما الإمامة في الحديث ، في حين أنه ليس لأحد ممن تقدم مالكاً أو تأخر عنه هاتان الفضيلتان ، وإنما يوجد من يشاركه في كثرة المسائل الفقهية ، وذلك كأبي حنيفة والشافعي ، ولكن ليس لأحدهما درجة الإمامة في الرأي ولا درجة الإمامة في الحديث<sup>(١)</sup> . . . وهذا النص المذكور في تلك الوصية يوضح لنا بجلاء سبباً من أهم الأسباب التي حدت بمسعى الأندلس إلى الاحتفاظ بدراسة مذهب إمام المدينة والعكوف على قراءته وشرحه<sup>(٢)</sup> .

وهذا النص له وجهته إذا أدخلنا في حسابنا أن الباجي كان يعيش في وسط البيئة الأندلسية ، بل كان أندلسياً ، وعضواً بارزاً من أعضاء مشيخة الفقه المالكي في الأندلس ، فالنص من هذه الناحية له قوته إذ أن صاحبه لم يكن خارجاً عن هذا القطر ، تصل إليه الأخبار عن طريق السماع أو عن طريق الرواية والنقل ، كما هو الحال في الأخبار الواردة مثلاً عن المقدسي وهو بصدد الكلام عن هذا الموضوع . ويزيد من قيمة هذا النص أن الباجي كانت له رحلة طويلة في المشرق بلغت حوالي الثلاثة عشر عاماً ، قضاهما في الرحلة إلى العواصم الكبرى التي كانت مهداً لتلك الثقافة الاسلامية ، وذلك كالمدينة وبغداد والموصل وفلسطين والقاهرة ، وقد درس في رحلته هذه على أساتذة منتمين إلى المذهب المالكي ، كما درس على آخرين منتمين إلى المذاهب السائدة في ذلك الوقت ، ذلك المذهبان هما مذهباً أبي حنيفة والشافعي . . . . على أنه يجب علينا أن نتحوط للأمر ، فلا نحب أن يصل هذا الرأي على علته دون أن يخضع لقانون المناقشة والجدل ، لأنه قد صدر من هذا العالم في عصر ملوك الطوائف ،

(١) راجع فقرة رقم ١٢ ، ١٣ ،

(٢) هناك نصوص كثيرة متفرقة في حواشي الكتب عن سبب انتشار مذهب مالك بالأندلس ، ويمكن الرجوع إليها مثلاً في المقدسي والمقرئ — نفع الطيب ج ٢ ص ٢١٤ ، ٢١٨ ، ط محي الدين عبد الحميد .

بيد أن مذهب مالك قد دخل الأندلس في عصر عبد الرحمن الداخل ، وذلك حينما أدخل الغازي بن قيس موطأ إمام المدينة إلى الأندلس .

وأما بالنسبة للدراسات الفلسفية فهو يبدو فيها حذراً ، لا يبيح قراءتها ومطالعتها إلا على سبيل التحقق من بطلانها وعدم صلاحيتها لأن تكون دستوراً أو قانوناً صالحاً ، حتى ولو كان ذلك قائماً على أساس خدمة الدين ، لأن القرآن فيه شفاء للناس ، وفيه غناء كبير عن مثل تلك الدراسات ، وهذه الفكرة تقريباً ، هي الفكرة الشنئية التي كانت تسود روح العصور الوسطى ، التي لم يكن يسمح فيها بمثل هذه الدراسات إلا لمن نضج عقله وتهذبت فكرته ، وأصبح قادراً على صيانة نفسه ودينه من ضلالات الفلاسفة والمنطقيين ، يقول الباجي مخاطباً أولاده :

« وأحذركم من قراءتها ما لم تقرأ من كلام العلماء ما تقويان به على فهم فساده وضعف شبهه ، وقلة تحقيقه ، مخافة أن يسبق إلى قلب أحدكم مالا يكون عنده من العلم ما يقوى به على رده ، ولذلك أنكر جماعة العلماء المتقدمين والمتأخرين قراءة كلامهم لمن لم يكن من أهل المنزلة والمعرفة خوفاً عليهم مما خوفتكم منه . . » ويستمر في استهجان دراسة هذين العلمين إلى أن يقول : « وقد رأيت بغداد وغيرها من يدعى هذا الشأن مستحقراً مستهجنأً مستضعفاً ، لا يناظره إلا المبتدئ ، وكفكك بعلم صاحبه في الدنيا مرموق مهجور ، وفي الآخرة مدحور مبثور ، وأما من يتعاطى ذلك من أهل بلدنا (الأندلس) فليس عنده منه إلا إسمه ولا وصل إليه إلا ذكره »<sup>(١)</sup>.

ولكن مع هذا يمكن أن يقال : هل الدراسة الفلسفية والمنطقية كانت منعدمة أو شبه منعدمة في اسبانيا الاسلامية خضوعاً لرغبة رجال الدين الذين كانوا يتمتعون بسلطة كبيرة في ذلك الوقت ؟

الجواب عن ذلك أن الفلسفة قد وجدت تربة خصبة فأثمرت ثمراً محموداً، إذ بالرغم من وجود أمثال تلك النصوص نجد نصوصاً أخرى تدل على براعة الأندلسيين وإجادتهم لمثل تلك الدراسات... فمثلاً يقول أبو محمد علي بن حزم الظاهري في رسالة له رداً على رسالة أبي علي الحسن بن محمد بن أحمد ابن الريب التميمي القيرواني: «وأما الفلسفة فإني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار دالة على تمكنه من هذه الصناعة، وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة، وتامة الحُسن، فائقة الجودة، عظيمة المنفعة».

ورود في تذييل ابن سعيد على رسالة ابن حزم السابقة ما نصه: «وأما كتب الفلسفة فإمامها في عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبي، وله فيها تصانيف جردها كما رأى انحراف منصور بن عبد المؤمن عن هذا العلم، وسجنه بسببها، وكذلك ابن حبيب الذي قتله المأمون بن المنصور المذكور على هذا العلم بإشبيلية»<sup>(١)</sup>. . . . وبجانب النصين السابقين الواردين عن ابن حزم وابن سعيد نجد صاعداً الطليطلي يذكر لنا أيضاً من اشتغل بهذا العلم من مدينة طليطلة وجهاتها فيقول: «ومنهم أبو الحسن علي بن خلف بن أحمد، وأبو اسحاق ابراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرققال، وأبو مروان عبدان بن خلف الاستيجي، وأبو جعفر أحمد بن يوسف بن غالب التهلاكي، وعيسى بن أحمد ابن العالم، وابراهيم بن سعيد السهلي الاسطرلابي، وأعلمهم بحركات النجوم وهيئة الأفلاك أبو اسحاق ابراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرققال، فإنه أmeer أهل زماننا بأرصاد الكواكب، وهيئة الأفلاك، وحساب حركاتها، وأعلمهم بعلم الأرياح، واستنباط الآلات النجومية»<sup>(٢)</sup>.

(١) المقرئ: نفح الطيب، ج ٤ ص ١٧٦

(٢) شكيب أرسلان، ج ٢ ص ٣٩

ويذكر المقرئ نقلاً عن ابن حيان من كتاب «المقتبس» في ترجمة يحيى ابن الحكم الشاعر الأندلسي الملقب بالفزال، والمتوفى في حدود سنة (٢٥٠ هـ)، أنه كان حكيم الأندلس وشاعرها وعرفها<sup>(١)</sup>. . . ومن رسالة الشُّنْدِي في فضل أهل الأندلس ما نصه: «وهل لكم في النجوم والهندسة والفلسفة مَلِكٌ كالمُتَدْر ابن هود صاحب سرقسطة؟ . . . فإنه كان آية في ذلك»<sup>(٢)</sup>.

وبجانب هؤلاء جميعاً نستطيع أن نقول إنه نبتت شخصيات أخرى — في بيئات إسلامية وغير إسلامية — كان لها أثر محمود في هذا الميدان وذلك كابن جبرول المتوفى سنة (٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) وابن باجة المتوفى سنة (١١٣٨ م)، وابن طفيل المتوفى سنة (١١٨٥ م)، وابن ميمون المتوفى سنة (١٢٠٤ م).

من كل ما تقدم نستطيع أن نقول إنه بالرغم من فرض هذا الحصار الشديد الذي عانت الفلسفة بسببه الكثير من الحن، قد ظهرت أحياناً في ثوبها الجميل، وأخذت حصتها من الظهور والازدهار، وذلك حينما كان يقدر لها التأييد من ملك أو أمير، وأحياناً أخرى تنكش بعيدة عن قصور الخلفاء وبيوت الوزراء، ولن نذهب بعيداً إذا قلنا أن ظهورها دائماً كان مشوباً بالقلق، وممزوجاً بالخوف، إذ أن الفقهاء والعامة من خلفهم كانوا شديدي الحرص على مقاومتها، والوقوف في سبيلها، ولقد حدثت مأساة احراق الكتب الفلسفية والمنطقية أكثر من مرة. فقد ورد مثلاً في نفح الطيب أن المنصور أحرق مكتبة الحكم ابن هشام. وورد عن النباهي في كتاب «تاريخ قضاة الأندلس» أن القاضي محمد ابن يَبْقَى بن زَرْب اعتنى بأصحاب ابن مسرة والكشف عنهم، وأظهر للناس كتاباً حسناً، وضعه في الرَّدِّ على أصحابه، ثم يقول: وفي سنة (٣٥٠ هـ)

(١) المقرئ: نفح الطيب، ج ٣ ص ٢١، ط. محي الدين عبد الحميد.

(٢) المقرئ: نفح الطيب، ج ٤ ص ١٨٢، ط. محي الدين عبد الحميد.

جىء إليه بأصحاب ابن مسرة ، وجلس أمام باب المسجد ، وأحرق بين يديه جملة كبيرة من كتبهم وهم ينظرون<sup>(١)</sup> ...

هذا بالنسبة للنقطتين السابقتين ، أما فيما يتعلق بالنسبة للنقطة الأخيرة — فقد أشرت إليها فيما سبق من اهتمام بعض العلماء بدراستها — فيعتبر الباجي في وصيته أن مَنْ يعتقد أن هناك تأثيراً للنجوم والأفلاك مِنْ أحداث في الكون مخالفاً للشريعة الإسلامية ، ويعدُّ مَنْ يتصدى لدراسة هذا العلم من جملة المارقين من الدين ، لأن الإسلام باعتباره ديناً سماوياً يرد جميع الاعتبارات من خلق وإماتة إلى الله وحده لا شريك له . ولكنه مع ذلك يستثنى ما إذا كان نوع تلك الدراسات الفلكية المتعلقة بتعديل الكواكب ، ومعرفة بروجها ومنازلها ، ومعرفة نزول الشمس والقمر ، وطريقة سيرهما ودورانهما ، مردود إلى علم الحساب ، الذي لا حرج في تعلمه . بل هو مِنْ قسم المباحات المستحسنة ، وشاهده من القرآن الكريم قول الله تعالى : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يؤمنون »<sup>(٢)</sup> .

وهذا الاستثناء الذي رأيناه للقاضي أبي الوليد الباجي الشنّي المالكي نرى مثله لفقهاء آخر كان معاصراً له ، ذلك الفقيه هو أبو محمد علي بن حزم الذي كان من عشاق مدرسة داود بن علي الظاهري ، والذي صار فيما بعد أستاذاً للمدرسة الظاهرية في المغرب الاسلامي ، إذ كان يعتقد أن دراسة هذا العلم — أعني علم الفلك — من حيث معرفة مطالع الكواكب وارتفاعها واختلاف مراكز أفلاكها هي دراسة صحيحة ومستحسنة ، لأن في دراستها ما يساعد على معرفة الخالق وحسن

(١) النباهي : المرقبة العليا ص ٧٨

(٢) راجع فقرة رقم ١٧

تدبيره وإتقان صنعته ، وتعين الناظر فيها إلى معرفة القبلة وأوقات الصلاة ومعرفة الأهلة لفرض الصوم والفطر . الخ (١) .

أما القسم الثانى من أقسام الوصية فيشتمل على وصايا ومواعظ خلقية كريمة رسم فيها انخطوط الرئيسية للعلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وبينه وبين إخوانه وعشيرته وجيرانه ، بل بينه وبين الدولة والسلطان ، من أجل هذا كان لتلك الوصية أثر كبير فى الوسط العلمى الذى كان يعيش فيه المؤلف ، فلم تكن — فيما يبدو — مقصورة على ولديه الذين أنشئت من أجلها تلك الوصية ، بل أخذت سبيلها إلى قلوب تلاميذه الذين احتلوا مكان الأستاذ ، تقرأ فى حلقات الدروس ، ويحاضر بها فى المجالس العلمية ، ومن الأدلة على ذلك ما يرويه لنا ابن الأبار أن أبا اسحاق بن جمعة القاضي كان يحدث بوصية الباجي لابنيه عنه (٢) ، ويحدثنا أيضاً أن ابراهيم بن أحمد بن خلف بن جماعة بن مهدى قاضى دانية ثم قاضى شاطبة قد كانت له رواية عن أبى على الصدفى (تلميذ الباجي) وناوله أبو على المذكور وصية أبى الوليد الباجي (٣) .

ونحن من جانبنا نرى أن هذا التأثير لم يكن مقصوراً على أولاده أو على تلاميذه فحسب ، بل تعدى ذلك بصورة واضحة إلى عصور متأخرة عن العصر الذى كان يعيش فيه الباجي ، من ذلك مثلاً ما نشاهده فى وصية الوزير لسان الدين بن الخطيب المتوفى (سنة ٧٧٦ هـ) لأولاده من مشابهة كبيرة واتحاد تام ، فابن الخطيب قد ابتدأ وصيته بما ابتدأ الباجي به وصيته ، وختمها بما ختم به الباجي وصيته ، واستعمل الوزير — تقريباً — نفس الآيات ونفس الأحاديث التى استعملها الفقيه ، وطرق نفس الموضوعات التى طرقها ، ووضع قدمه حيث وضعها ، وكل ما هنالك من فروق — إذا كانت هناك فروق تذكر — أن

(١) ابن حزم : الفصل ج ٥ ص ٣٧

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ٩١

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ٦٢ ، ٦٣

أسلوب الفقيه مرسل غير مسجوع ، بينما جرى الوزير على عاداته تقريباً على السجع المتكلف ، ولو شئنا أن ننحى سجعاته جانباً ما أخالنا قد ظفرنا بشيء جديد في وصية هذا الوزير ، وما علينا إلا نضرب الأمثلة شاهدة على ذلك ليتبين للقارى صحة ما ذهبنا إليه بوضع فقرات من كلتا الوصيتين ، وسنشير بالحرف (ب) للباحثي ، وبالحرف (ل) للسان الدين ، وفيما يلي بعض تلك الفقرات :

ب — فلا يستزلكما عنه شيء من أمور الدنيا (أى الدين) وابدلاً دونه أرواحكما ، فكيف بدنيا كما ، فإنه لا ينفع خير بعده الخلود فى النار ، ولا يضر ضر بعده الخلود فى الجنة « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »<sup>(١)</sup>.

ل — « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » وقد علت شرائعه (يعنى الدين) وراع الشكوك رائعه ، فلا يستزلكم الدنيا عن الدين ، وابدلاً دونه النفوس فعل المهتدين ، فان ينفع متاع بَعْدَ الخلود فى النار أبد الأبدىين ، ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة ، والله أصدق الواعدين<sup>(٢)</sup>.

ب — ثم الحج إلى بيت الله الحرام من استطاع إليه سبيلاً ، فهو فرض واجب ، وقد روى عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « الحج المبرور ليس له جزاء عند الله إلا الجنة » ، ثم الجهاد فى سبيل الله إن كانت بكما قوة عليه ، أو عون من يستطيع إن ضعفما عنه ، فهذه فرائض الإسلام ، وإن كان الايمان حافظاً عليها وسابقاً إليها<sup>(٣)</sup>.

ل — والحج مع الاستطاعة الركن الواجب ، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب ، وقد بين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قدره فيما فرض عن

(١) راجع فقرة رقم ٣

(٢) المقرئ : فتح الطيب ج ١٠ ص ٢٥١

(٣) راجع الفقرات رقم ٩ ، ١٠



ربه وسنَّه ، وقال : ليس له جزاء عند الله إلا الجنة ، ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت بكما قوة عليه ، وغنى لديه ، فكونوا ممن يسمع نفيده ويطيعه ، وإن عجزتم فأعينوا مَنْ يستطيعه ، هذه عُمدُ فرائض الاسلام وفروضه وتقوده ومهوره<sup>(١)</sup> .. الخ

ب — واعلموا أنكم إنما تصلان إلى أداء هذه الفرائض ، والإتيان بما يلزمكما منها ، مع توفيق الله لكما بالعلم الذي هو أصل الخير ، وبه يتوصل إلى البرِّ . . . . . ويستطرد في سرد الآيات الدالة على الحث على طلب العلم إلى أن يقول : والعلم سبيل لا يفضى بصاحبه إلا إلى السعادة ، ولا يقصر به عن درجة الرفعة والكرامة ، قليله ينفع ، وكثيره يُعْلى ويرفع كنز يزكو على كل حال ، ويكثر مع الاتناق ولا يغضبه غاصب ، ولا يخاف عليه سارق ولا محارب ، فاجتهدا في طلبه ، واستعذبا التعب في حفظه ، والسهر في درسه . . . إلى أن يقول : والعلم ولاية لا يعزل عنها صاحبها ، ولا يعرى من جملها لابسها ، وكل ذى ولاية وإن جَلَّت ، وحرمة وإن عظمت ، إذ خرج عن ولايته ، أو زال عن بلده ، أصبح مِنْ جاهه عارياً ، وَمِنْ حاله عاطلاً غير صاحب العلم<sup>(٢)</sup> .. الخ

ل — واعلموا أن بالعلم تستعمل وظائف هذه الألقاب ، وتحلى محاسنها من بعد الانتقاب . . ثم يستطرد هذا أيضاً في ذكر محاسن العلم والاستدلال بالآيات إلى أن يقول : (والعلم) هو السبيل في الآخرة إلى السعادة ، وفي الدنيا إلى المنحلة عادة ، والذخر الذي قليله يشفع ، وكثيره ينفع ، لا يغلبه الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ، ولا يبتزه الدهر إذا نال ، ولا يستأثر به البحر إذا هال ، مَنْ لم ينله فهو ذليل ، وإن كثرت آماله ، وقليل وإن جَمَّ ماله ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وتخطى حسابكم ، فلتمسوه لبنيكم ، واستدرکوا منه ما

(١) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١٠ ص ٢٥٤

(٢) راجع الفقرة رقم ١١

خرج من أيديكم ، واحملوهم على جمعه ودرسه ، واجعلوا طباعهم ثرى لغرسه ، واستسهلوا ما ينالهم من تعب من جرّاه ، وسهر يهجر الجفن له كراه ، تعقدوا لهم ولآية عز لا تعزل ، وتحلوهم مثابة رفعة لا يحط فارعها ولا يستنزل<sup>(١)</sup> .

ب — وأفضل العلوم علم الشريعة ، وأفضل ذلك لمن وفق أن يوجد قراءة القرآن ، ويحفظ حديث النبي — صلى الله عليه وسلم — ويعرف صحيحه من سقيمه ، ثم يقرأ أصول الفقه ، فينتفه في الكتاب والسنة ، ثم يقرأ كلام الفقهاء ، وما نقل من المسائل عن العلماء ، ويدرب في طرق النظر وتصحيح الأدلة والحجج ، فهذه الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، ومن قصر عن ذلك فليقرأ بعد تحفظ القرآن ورواية الحديث على مذهب مالك — رحمه الله — فهي إذا انفردت أنفع من سائر ما يقرأ في باب التنفقه<sup>(٢)</sup> .

ل — وخير العلوم علم الشريعة ، وما نجم بمنابها المريعة ، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها ، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها ، فإنما هي آلات لغير . وأسباب إلى خير منها وخير فمن كان قابلا للازدياد ، وألنى فهمه ذا اتقياد ، فليخص تجويد القرآن بتقديمه ثم حفظ الحديث ، ومعرفة صحيحه من سقيمه ، ثم الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المنه ، المهدي إلى كنوز الكتاب والسنة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلّة ، والتدرب في طرق النظر وتصحيح الأدلة ، وهذه هي الغاية القصوى في الملة ، ومن قصر إدراكه عن هذا المرعى ، وتقاعد عن التي هي أسمى ، فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه<sup>(٣)</sup> .

ب — وعليكما بالأمر بالمعروف وكونا من أهله ، وانها عن المنكر واجتنبنا فعله ، وأطيعا من ولاة الله أمركا ما لم تدعيا إلى معصية فيجب أن تمتنعنا منها ،

(١) المقرئ : فتح الطيب ، ج ١٠ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥

(٢) راجع فقرة رقم ١٢

(٣) المقرئ : فتح الطيب ، ج ١٠ ص ٢٥٥

وتبذلاً الطاعة فيما سواها ، وعليكم بالصدق فإنه زين ، وإياكم والكذب فإنه شين ، ومن شمر بالصدق فهو ناطق محمود ، ومن عرف بالكذب فهو ساكت مهجور مذموم ، وأقل عقوبات الكذاب ألا يقبل صدقه ، ولا يتحقق حقه<sup>(١)</sup> . الخ

ل — وأطيعوا أمر من ولاء الله تعالى من أموركم أمراً ، ولا تقربوا من الفتنة جراً ، ولا تداخلوا في الخلاف زيداً ولا عمراً ، وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين ، وأهم ما أضرى عليه الآباء أسنة البنين ، وأكرم منسوب إلى مذهبه ، ومن أكثر من شيء عُرِفَ به .

وإياكم والكذب ، فهو العورة التي لا تورى ، والسوأة التي لا يرتاب في عارها ولا يتارى ، وأقل عقوبات الكذاب بين يدي ما أعد الله له من العذاب أن لا يقبل صدقه إذ صدق ، ولا يُعَوَّلَ عليه إن كان بالحق نطق<sup>(٢)</sup> .

ب — وإياكم والعون على سفك دم بكلمة ، أو المشاركة فيه بلفظة ، فلا يزال الإنسان في فسحة من دينه ما لم يعمس يده أو لسانه في دم إمرئ مسلم . قال الله تعالى : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً »<sup>(٣)</sup> . الخ

ل — والله الله أن تعينوا في سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام ، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام ، واعلموا أن الإنسان في فسحة ممتدة ، وسبل الله تعالى غير منسدة ، ما لم ينبذ إلى الله تعالى بأمانه ، ويمس الدم الحرام بيده أو لسانه ، قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به سنناً قويمًا ، وجلى من الجهل والضلال ليلا بهيما « ومن يقتل مؤمناً متعمداً »<sup>(٤)</sup> . الخ

وبعد . . . فإني أعتقد بعد كل ما تقدم أن البرهان واضح تمام الوضوح في تأثير لسان الدين بالباجي تأثيراً كبيراً ، رغم أن الباجي توفي سنة (٤٧٤ هـ) وولد

(١) فقرة رقم ١٥

(٢) القرى : ج ١٠ ص ٢٥٦

(٣) فقرة رقم ١٥

(٤) القرى : ج ١٠ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧

لسان الدين سنة (٧١٣ هـ) وهو فرق في الزمان ليس بالقليل . . ولو شئنا أن نتبع الوصيتين فقرة فقرة ، لما ظفرتنا — كما قلنا من قبل — بشئ جديد في الأغراض والأهداف ، اللهم إلا إذا كان ذلك بتقديم جملة على جملة ، أو صناعة لفظية كما هو صنيع ابن الخطيب ، وآثرت ألا أطيل الأمثلة على القارىء ، وكلتا الوصيتين تحت يده فإرجع إليهما إن أحب .

وما دمنا قد وصلنا إلى ابن الخطيب وتأثره بالباجي ، فهناك ملحظ جميل يحذر بنا أن نذكره في هذا المكان ، لأنه — فيما أظن — مرتبط أيضاً بموضوعنا أوثق ارتباط . ذلك أن صديقي وزميلي الدكتور مختار العبادي في بحث له حول (مادية ابن الخطيب)<sup>(١)</sup> إنتهى فيه إلى بعد غور الوزير وسداد نظره في سياسته المالية التي جرى عليها ، لأن نظرتة إلى هذا الوطن (غرناطة) كانت مشوبة بالقلق والارتياح والشكوك ، فتطلع إلى مكان آخر يصلح لأن يكون موضعاً لاستثمار الأموال ، وقد إعتد الدكتور مختار في بحثه على بعض الوثائق التي تؤيد ما ذهب إليه ، كما استند أيضاً إلى عبارة وردت في وصيته لأولاده ، والعبارة نصها كما يلي : « ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار » . . وأحب أن أضيف إلى رأى زميلي رأياً آخر ، هو أن تلك السياسة المادية لم تكن لابن الخطيب نجس ، أو عبارة أدق لم تكن سياسة جديدة أبدعها هنا الوزير ، لأن نص العبارة موجود تقريباً في وصية الباجي ، والعبارة هي : « ومن رزق منكم مالا فلا يجعل في الأصول إلا أقله » وما أظن كلمة الأصول عند الباجي وكلمة العقار عند ابن الخطيب أنهما يقعان إلا على معنى واحد ، وما أظن أيضاً إلا أن الظرف السياسي الذي كانا يعيشان فيه — رغم بعدها في الزمن — هو

(١) راجع مقال الدكتور العبادي في مجلة « لسان الدين » تحت عنوان « لسان الدين بن الخطيب

ونزاعته الاقتصادية » — العددان التاسع والعاشر سبتمبر أكتوبر ١٩٥٤

الذى أملى عليها وعلى أضرابها تلك السياسة المالية التى لاحظها زميلى فى بحثه .  
 أما بالنسبة للشكل الظاهرى لوصية الباجى فهى مخطوطة محفوظة بمكتبة  
 الأسكوريال تحمل رقم ٧٣٢ ، وهى ضمن مجلد يحتوى على عدة رسائل ، وهى  
 الرسالة الرابعة من هذا المجموع ، وهذه المخطوطة تقع فى اثنا عشرة ورقة من  
 الحجم المتوسط وقد كتبت بخط مغربى وبمداد أسود ، سهل القراءة ، وقد  
 كتبت هذه الرسالة بعد وفاة الباجى بـ ٢٧٥ سنة فقد ختمها الناسخ بقوله :

كَلِّمِ الْجَمُوعَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَسَنِ عَوْنِهِ  
 وَذَلِكَ فِي ثَانِي شَهْرِ حِجَّةٍ مَخْتَمٍ عَامِ  
 تِسْعَةِ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِائِهِ

وكتب على الصحيفة التى تحمل عنوان الوصية البيتين الآتيتين :

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف ثم انتهى عما أتاه واقترف  
 لقوله قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

وصية الشيخ الفقيه الامام الحافظ أبي الوليد الباجي  
نفعنا الله به ورحمه ، لولديه رحمهم الله أجمعين

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله

قال الشيخ الفقيه الإمام الحافظ أبو الوليد الباجي رضى الله عنه ورحمه .  
(١) يَا بَنِيَّ هَذَا كَمَا اللَّهُ وَأَرْشَدَكُمْ وَوَقَفَكُمْ وَعَصَمَكُمْ ، وَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِخَيْرِ  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَوَقَاكُمْ مَحْذُورَهَا بِرَحْمَتِهِ ، أَنْتُمْ لَمَّا بَلَغْتُمَا الْحَدَّ الَّذِي قَرَّبَ فِيهِ  
تَعَيَّنَ الْفُرُوضُ عَلَيْكُمْ ، وَتَوَجَّهَ التَّكْلِيفُ إِلَيْكُمْ ، وَتَحَقَّقْتَ أَنْتُمْ قَدْ بَلَغْتُمَا حَدَّ مَنْ  
يَفْهَمُ الْوَعْظَ وَيَتَّبِعُ الرَّشَدَ وَيُصَلِّحُ لِلتَّعْلِيمِ وَالْعِلْمِ ، لَزِمْنِي أَنْ أَقْدِمَ إِلَيْكُمْ وَصِيَّتِي ،  
وَأُظْهِرَ إِلَيْكُمْ نَصِيحَتِي ، مَخَافَةَ أَنْ تَحْتَرِمَنِي مَنِيَّةً وَلَمْ أَبْلُغْ مَبَاشَرَةَ تَعْلِيمِكُمْ وَتَدْرِيْبِكُمْ  
وَإِرْشَادِكُمْ وَتَفْهِيمِكُمْ . فَإِنْ أُنْسَأَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْأَجْلِ ، فَسَيَتَكَرَّرُ النَّصِيحُ وَالتَّعْلِيمُ ،  
وَالإِرْشَادُ وَالتَّفْهِيمُ . « وَمَا تُوفِّيْتَنِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَدَلَّيْتُوَكَّلُ  
الْمُتَوَكِّلُونَ <sup>(١)</sup> » بيده قلوبكم ونواصيكم ، وَإِنْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ ذَلِكَ مَا أُتَوَقَّعُ  
وَأُظَنُّ مِنْ اقْتِرَابِ الْأَجْلِ وَانْقِطَاعِ الْأَمَلِ ، فَفِيهَا أَرْسَمَهُ مِنْ وَصِيَّتِي ، وَأَيُّنَهُ مِنْ  
نَصِيحَتِي ، مَا إِنْ عَمَلْتُمْ بِهِ ثَبُّتُمْ عَلَى مَنَهِاجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، وَفَزْتُمْ بِالْمَنْجَرِ الرَّاجِحِ ،  
وَنَلْتُمْ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَسْتَوْدِعُ اللَّهُ دِينَكُمْ وَدُنْيَاكُمْ ، وَأَسْتَحْفِظُهُ مَعَاشِكُمْ  
وَمَعَادِكُمْ ، وَأَفُوضُ إِلَيْهِ جَمِيعَ أَحْوَالِكُمْ ، وَهُوَ (١٧٤) حَسْبِي فِيمَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .  
وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا أَحَدَ أَنْصَحَ مِنِّي لَكُمْ ، وَأَشْفَقَ مِنِّي عَلَيْكُمْ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ  
مَنْ تَطِيبُ نَفْسِي أَنْ يَفْضَلَ عَلَيَّ غَيْرَكُمْ ، وَلَا أَرْفَعُ حَالًا فِي أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا  
سِوَاكُمْ . وَأَقْلُ مَا يُوْجِبُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصِيخُوا إِلَى قَوْلِي ، وَتَتَعَطَّأَ بَوْعُظِي ،  
وَتَتَفَهَّمُوا إِرْشَادِي وَنَصِيحِي ، وَتَتَيَقَّنُوا أَنِّي لَمْ أَهْمِكُمْ عَنْ خَيْرٍ ، وَلَا أَمَرْتُكُمْ بِشَرٍّ ،  
وَتَسْلُكُوا السَّبِيلَ الَّتِي نَهَجْتُمَا ، وَتَمْتَثِلُوا الْحَالَ الَّتِي مَثَلْتُمَا .

(١) سورة يوسف (١٢) آية رقم ٦٧

(\*) قام الدكتوران جمال محرز ومحمود مكي بمراجعة ما أعده السيد الدكتور جودة هلال للشرح

على الأصل ، واستدركا ما كان قد فاتته ، وصححا بعض القراءات .

(٢) واعلمنا أننا أهل بيت لم نخل بفضل الله ما انتهى إلينا منه من صلاح وتدين ، وعفاف وتصاون ، فكان بنو أيوب بن وارث عفا الله عنا وعنهم أجمعين ، جدنا سعد ، ثم كان بنو سعد سليمان وخلف وعبد الرحمن واحمد ، وكان أوفر الصلاح والتدين والتبرع والتعبد في جسدكم خلف ، كان مع جاهه وحاله واتساع دنياه متقبضاً عنها ، متقللاً منها ، ثم أقبل على العبادة والاعتكاف إلى أن توفى — رحمه الله — ثم كان بنو خلف ، عمّا كما عليّ وعمر وأبوكما سليمان وعمّا كما محمد وإبراهيم ، فلم يكن في أعمامكما إلا مشهور بالحج والجهاد ، والصلاح والعفاف حتى توفى منهم على ذلك عفا الله عنا وعنهم ، وكأنتي لاحق بهم ، ووارد عليهم ، ويصير ركامي إليكما ، فلا تأخذوا غير سبيلهم ، ولا ترضوا غير أحوالهم ، فإن استطعنا الزيادة فلا أنفسكما تمهدان ، ولها تبنيان ، وإلا فلا تقصرا عن حالهم .

(٣) وأول ما أوصيكم (٧٤ ب) به ما أوصى به إبراهيم بنه ويعقوب « يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » (١) وأهبا كما عما نهى عنه لقمان لابنه وهو يعظه « يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » (٢) .. وأؤكد عليكما في ذلك وصيتي وأكررها حرصاً على تعلقكما وتمسككما بهذا الدين الذى تفضل الله تعالى علينا به ، فلا يستزلكما عنه شىء من أمور الدنيا ، وابدلا دونه أرواحكما ، فكيف بدنياكما ، فإنه لا ينفع خير بعده الخلود فى النار ، ولا يضر ضرراً بعده الخلود فى الجنة « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (٣) فإن مما على هذا الدين الذى أصطفاه الله واختاره وحرّم ما سواه ، فأرجو أن نلتقى حيث لا نخاف فرقة ، ولا نتوقع إزاله ، ويعلم الله تعالى شوقى إلى ذلك وحرصى عليه ، كما يعلم إشفاقى من أن تزل بأحدكما قدم أو تعدل به فتنه ، فيحل عليه من سخط الله تعالى ما يحله دار البوار ،

(١) سورة البقرة (٢) آية رقم ١٣٢

(٢) سورة لقمان (٣١) آية رقم ١٣

(٣) سورة آل عمران (٣) آية رقم ٨٥

ويوجب له الخلود في النار ، فلا يلتقي مع المؤمنين من سلفه ، ولا ينفعه الصالحون من آبائه « يَوْمَ لَا يُغْنِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ » (١).

(٤) وتنقسم وصيتي لكما قسمين : فقسم فيا يلزم من أمر الشريعة أبين لكما منه ما يجب معرفته ويكون فيه تنبيه على ما بعده . وقسم فيا يجب أن تكونا عليه في أمر دنيا كما (١٧٥) وتجريان عليه بينكما .

(٥) فأما القسم الأول : فالإيمان بالله عز وجل ، وملائكته وكتبه ورسوله ، والتصديق بشرائعه ، فإنه لا ينفع مع الإخلال بشيء من ذلك عمل ، والتمسك بكتابات الله تعالى جدّه ، والمثابرة على تحفظه وتلاوته ، والمواظبة على التفكير في معانيه وآياته ، والامتنال لأوامره ، والانتها عن نواهيه وزواجره ، روى عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي ، كتاب الله تعالى وسنتي عضواً عليها بالنواجذ . . . وقد نصح لنا — صلى الله عليه وسلم — وكان بالمؤمنين رحياً ، وعليهم مشفقاً ، ولهم ناصحاً ، فاعملاً بوصيته ، وأقبلاً من نصحه ، وأثبتنا في أنفسكما المحبة له ، والرضى بما جاء به ، والافتداء بسنته والالتقياد له والطاعة لحكمه والحرص على معرفة سنته وسلوك سبيله ، فإن محبته تقود إلى الخير ، وتنجي من الهلكة والشر ، وأشربا قلوبكما محبة أصحابه أجمعين ، وتفضيل الأئمة منهم الطاهرين ، أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ونفعنا بمحبتهم . والزما أنفسكما حُسن التأويل لما شجر بينهم ، واعتقاد الجميل فيما نُقل عنهم . فقد روى عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : لا تسبوا أصحابي فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه . فمن لا يبلغ نصيف مُدّه مثل أُحُدٍ ذهباً فكيف يُوازنُ فضله أو يُدركُ شأوه ؟ وليس (٧٥ ب) منهم — رضى الله



عنهم — إلا من أنفق الكثير . ثم تفضيل التابعين ومن بعدهم من الأئمة والعلماء — رحمهم الله — والتعظيم لحقهم ، والافتداء بهم والأخذ بهديهم ، والافتقار لآثارهم ، والتحفظ لأقوالهم ، واعتقاد إصابتهم .

(٦) وإقام الصلاة فإنها عمود الدين ، وعماد الشريعة ، وآكد فرائض الملة ، في مراعاة طهارتها ، ومراقبة أوقاتها ، وإتمام قراءتها ، وإكمال ركوعها وسجودها ، واستدامة الخشوع فيها ، والإقبال عليها ، وغير ذلك من أحكامها ، وآدابها في الجماعات والمساجد فإن ذلك شعار المؤمنين ، وسنن الصالحين ، وسبيل المتقين .

(٧) ثم أداء زكاة المال ، لا تؤخر عن وقتها ، ولا يبخلُ بكثيرها ، ولا يغفل عن يسيرها — ولتخرج من أطيب جنس وبأوفى وزن ، فإنَّ الله تعالى أكرم الكرماء ، وأحق من اختيار له ، ولتعط بطيب نفس ، وتيقن أنها بركة في المال وتطهِّر له ، وتدفع إلى مستحقها دون محاباة ولا متابعة هوى ولا هوادة .

(٨) ثم صيامُ رمضان فإنه عبادة السر وطاعة الرَّبِّ ، ويجب أن يزداد فيه من حفظ اللسان ، والاجتهاد في صالح العمل ، والتحفظ من الخطأ والزلل ، ويراعى في ذلك لياليه وأيامه ، ويتبع صيامه قيامه وقد سُنَّ فيه الاعتكاف .

(٩) ثم الحج إلى بيت الله الحرام من استطاع إليه سبيلا ، فهو فرض واجب ، وقد روى عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : الحج المبرور ليس له جزاء عند الله (١٧٦) إلا الجنة .

(١٠) ثم الجهاد في سبيل الله إن كانت بكما قوة عليه ، أو عون من يستطيع إن ضعفما عنه ، فهذه مُعَدُّ فرائض الإسلام وإن كان الإيمان حافظاً عليها ، وسائقاً إليها ، تحوزا الخير العظيم ، وتفوزا<sup>(١)</sup> بالأجر الجسيم ، ولا تضيعا حقوق الله فيها وأوامره بها ، فتهلكا مع الخاسرين ، وتندما مع المفرطين .

(١) وردت في الأصل تحوز وتفوز بغير ألف .

(١١) وأعلمنا أنكما إنما تصلان إلى أداء هذه الفرائض ، والإتيان بما يلزمكما منها ، مع توفيق الله لكما بالعلم الذى هو أصل الخير ، وبه يتوصل إلى البرّ ، فعليكما بطلبه ، فإنه غنى لطالبه ، وَعَزَّ لِحَامِلِهِ ، وهو مع هذا السبب الأعظم إلى الآخرة ، به تُجْتَدَبُ الشبهات وتصح القربات ، فكم من عامل يبعده عمله من ربه ، ويكتب ما يتقرب به من أكبر ذنبه . قال الله تعالى : « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » (١) . وقال تعالى : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » (٢) . وقال تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » (٣) . وقال تعالى : « يَرْفَعُ [الله] الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » (٤) . . . والعلم سبيل لا يفضى بصاحبه إلا إلى السعادة ، ولا يقصر به عن درجة الرفعة والكرامة ، قليله ينفع ، وكثيره يعلى ويرفع ، كنز يزكو على كل حال ، ويكثر مع الانفاق ، ولا يفصمه غاصب ، ولا يُخَافُ عليه سارق ولا محارب ، فاجتهدا في طلبه ، واستعذبا التعب (٧٦ ب) في حفظه ، والتسهر في درسه ، والنصب الطويل في جمعه ، وواظبا على تقييده وروايته ، ثم انتقلا إلى فهمه ودرايته ، وانظرا أى حالة من أحوال طبقات الناس تختاران ، ومنزلة أى صنف منهم تؤثران (٥) ، هل تريان أحداً أرفع حالا من العلماء ، وأفضل منزلة من الفقهاء؟ . . . يحتاج إليهم الرئيس والمرءوس ، ويقتدى بهم الوضع والنفيس — يرجع إلى أقوالهم في أمور الدنيا وأحكامها وصحة عقودها وبياعاتها ، وغير ذلك من تصرفاتها ، وإليهم يلجأ

(١) سورة الكهف (١٨) آية رقم ١٠٣

(٢) سورة الزمر (٣٩) آية رقم ٩

(٣) سورة فاطر (٣٥) آية رقم ٢٩

(٤) سورة المجادلة (٥٨) آية رقم ١١ ، سقط لفظ [الله] من الأصل . (التحرير)

(٥) وردت في الأصل يؤثران .

في أمور الدين ، وما يلزم من صلاة وزكاة وصيام وحلال وحرام ، ثم مع ذلك السلامة من التبعات ، والحظوة عند جميع الطبقات — والعلم ولاية لا يعزل عنها صاحبها ، ولا يعرى من جمالها لابسها . وكل ذى ولاية وإن جلت ، وحرمة وإن عظمت ، إذا خرج عن ولايته أو زال عن بلدته أصبح من جاهه عارياً ، ومن حاله عاطلاً غير صاحب العلم ، فإن جاهه يصحبه حيث سار ، ويتقدمه إلى جميع الآفاق والأقطار ، ويبقى بعده في سائر الأعصار .

(١٢) وأفضل العلوم علم الشريعة ، وأفضل ذلك لمن وفق أن يجود قراءة القرآن ، ويحفظ حديث النبي — صلى الله عليه وسلم — ويعرف صحيحه من سقيم ، ثم يقرأ أصول الفقه ، فيتفقه في الكتاب والسنة ، ثم يقرأ كلام الفقهاء وما نقل من المسائل عن العلماء ، ويدرب في طرق النظر وتصحيح الأدلة والحجج ، فهذه الغاية القصوى (١٧٧) والدرجة العليا .

(١٣) ومن قصر عن ذلك فليقرأ بعد تحفظ القرآن ورواية الحديث المسائل على مذهب مالك — رحمه الله — فهي إذا انفردت أنفع من سائر ما يقرأ مفرداً في باب التفقه ، وإنما خصصنا مذهب مالك — رحمه الله — لأنه إمام في الحديث وإمام في الرأي وليس لأحد من العلماء ممن انبسط مذهبه ، وكثرت في المسائل أجوبته ، درجة الإمامة في المعنيين ، وإنما يشاركه في كثرة المسائل وفروعها ، والكلام على معانيها وأصولها أبو حنيفة والشافعي ، وليس لأحدهما إمامة في الحديث ولا درجة متوسطة .

(١٤) وإياكما وقراءة شيء من المنطق وكلام الفلاسفة فإن ذلك مبنى على الكفر والإلحاد والبعد عن الشريعة . وأحذركما من قراءتها ما لم تقرآ من كلام العلماء ما تقويان به على فهم فساده وضعف شبهه وقلة تحقيقه ، مخافة أن يسبق إلى قلب أحدكما ما لا يكون عنده من العلم ما يقوى به على رده ، ولذلك أنكروا جماعة العلماء المتقدمين والمتأخرين قراءة كلامهم لمن لم يكن من أهل المنزلة والمعرفة به خوفاً عليهم مما خوفتكما منه ، ولو كنت أعلم أنكما تبلغان

منزلة المَيِّزِ والمعرفة والقوة على النظر والمقدرة ، لحضتكما على قراءته ، وأمرتكما بمطالعتة ، لتحققا ضعفه وضعف المعتد له ، وركاكة المغتر به ، وأنه من أقبح (٧٧ ب) الخاريق والتمويهات ، ووجوه الحيل والخزعبلات التي يغتر بها من لا يعرفها ، ويستعظمها من لا يميزها ، ولذلك إذا حقق من يعلم عند أحد منهم وجده عارياً من العلم بعيداً عنه ، يدعى أنه يكتُم علمه وإنما يكتُم جهله ، وهو قيم عليه ، ويروم أن يستعين به وهو يعين عليه . وقد رأيت ببغداد وغيرها من يدعى منهم هذا الشأن مستحقراً مستهجنماً مستضعفاً لا يناظره إلا المبتدئ . وكفالك بعلم صاحبه في الدنيا مرموق مهجور ، وفي الآخرة مدحور مبثور . وأما من يتعاطى ذلك من أهل بلدنا فليس عنده منه إلا اسمه ، ولا وصل إليه إلا ذكره .

(١٥) وعليكما بالأمر بالمعروف وكونا من أهله ، وانهبيا عن المنكر واجتنبيا فعله ، وأطيعا من ولاء الله أمركما ما لم تدعيا إلى معصية فيجب أن تمنعنا منها وتبذلا الطاعة فيما سواها . وعليكما بالصدق فإنه زين ، وإياكما والكذب فإنه شين ، ومن شُهرَ بالصدق فهو ناطق محمود ، ومن عُرفَ بالكذب فهو ساكت مهجور مذموم ، وأقل عقوبات الكذاب ألا يقبل صدقه ولا يتحقق حقه ، وما وصف الله تعالى أحداً بالكذب إلا ذاماً له ، ولا وصف الله تعالى أحداً بالصدق إلا مادحاً له ومرفعاً به . وعليكما بأداء الأمانة ، وإياكما والإلمام بالخيانة ، أديا الأمانة إلى من ائتمنكما ، ولا تخونا من خانكما . «وأوفيا بالعهد (١٧٨) إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً»<sup>(١)</sup> . . أوفيا الكيل والوزن ، فإن النقص فيه مقت ، لا ينقص المال ، بل ينقص الدين والحال . . وإياكما والعون على سفك دمٍ بكلمة ، أو المشاركة فيه بلفظة ، فلا يزال الإنسان في فسحة من دينه ما لم يغمس يده

أو لسانه في دم امرئ مسلم ، قال الله تعالى : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا » (١) .. واجتناب الزنا من أخلاق الفضلاء ، ومواقفته عار في الدنيا وعذاب في الآخرة ، قال الله تعالى : « وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا » (٢) .. وإياكما وشرب الخمر فإنها أُمُّ الكبائر والجرية على المآثم ، وقد حرمها الله تعالى في كتابه العزيز فقال عز من قائل : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » (٣) .. وحسبكما بشيء يذهب العقل ويفسد اللب ، وقد تركها قوم في الجاهلية تكررًا ، إياكما ومقاربتها والتدنس برجسها ، وقد وصفها الله تعالى بذلك وقرنها بالأنصاب والأزلام ، فقال عز من قائل : « إِنَّمَا اتَّخَرُ الْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (٤) .. فبين تعالى أنها من عمل الشيطان ووصفها بالرجس ، وقرن الفلاح باجتنابها ، فهل يستجيز عاقل بصدق الباري في خبره — تبارك اسمه — ويعلم أنه (٧٨ ب) أراد الخير لنا فيما حذرنا عنه منها أن يقربها ] [ (٥) حين نهاه ، وإياكما والربا ، فإن الله تعالى قد نهى عنه ، وتوعد بمحاربة من لم يتب منه ، قال عز من قائل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » (٦) وقال تعالى : « يَمْحَقُ اللَّهُ

(١) سورة الإسراء (١٧) آية رقم ٣٢

(٢) سورة الإسراء (١٧) آية رقم ٣٠

(٣) سورة المائدة (٥) آية رقم ١٩

(٤) سورة المائدة (٥) آية رقم ١٠

(٥) توجد عنها كلمة غير مقروءة تلف في الصحيفة .

(٦) سورة البقرة (٢) آية رقم ٢٧٨

الرَّبَّاءِ وَيُرِي الصَّدَقَاتِ» (١) . . . ولا تأكلوا مال أحد بغير حق ، وإياكم وما مال اليتيم ، فقد قال عز وجل : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا » (٢) . . . وعليكما بطلب الحلال واجتناب الحرام فإن عدتما الحلال فالجأ إلى المتشابه . وإياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، والظالم مذموم الخلائق مبغض إلى الخلائق . وإياكم والنميمة ، فإن أول من يمقت عليها مَنْ تُنْقَلُ إليه ، وقد روى عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : لا يدخل الجنة قَتَاتٌ (٣) . وإياكم والحسد ، فإنه داء يهلك صاحبه ، ويعطب تابعه . وإياكم والفواحش ، فإن الله تعالى حرم ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق . وإياكم والغيبة فإنها تحبب الحسنات ، وتكثر السيئات ، وتبعد من الخالق ، وتبغض إلى المخلوق . وإياكم والكبر فإن صاحبه في مقت الله متقلب ، وإلى سخطه منقلب ، وإياكم والبخل ، فإنه لا داء أدرأ منه ، لا تسلم عليه ديانة ، ولا تتم معه سيادة . وإياكم ومواقف الخزي وكل ما كرهتما أن يظهر عليكما فاجتنباه ، وما علمتما أن الناس يعيبونه في الملأ فلا تأتياه في الخلاء .

(١٦) فإن بلغ أحدكما أن يسترعيه الله أمةً بحكم أو فتوى فليمتثل العدل جهده ، ويجتنب الجور وغدره ، فإن الجائر مضاد لله في حكمه ، كاذب عليه في خبره مغير بشريعته ، مخالف له في خليقته ، قال الله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » (٤) . وقد روى أن الخلق كلهم عيال الله وإن أحب الخلق إلى الله أحوطهم لعياله ، وروى ما امرؤه استرعى رعية فلم

(١) سورة البقرة (٢) آية رقم ٢٧٦

(٢) سورة النساء (٤) آية رقم ١٠

(٣) قنات = تمام للحديث وناقل له

(٤) سورة المائدة (٥) آية رقم ٤٧

يحطها بنصيحة إلا حرم الله تعالى عليه الجنة . وإياكما وشهادة الزور فإنها تقطع ظهر صاحبها ، وتفسد دين منقلدها ، وتخلد قبيح ذكره — وأول من يفتته وينم عليه المشهود له ، وإياكما والرشوة فإنها تعمى عين البصيرة ، وتخط قدر الرفيع . وإياكما والأغاني فإن الغناء ينبت الفتنة في القلب ويولد خواطر السوء في النفس . وإياكما والشطرنج والنرد فإنه شغل البطالين ، ومحاولة المترفين ، يفسد العمر ويشغل عن الفرض ، ويجب أن يكون عمركما أعز عليكما وأفضل عندكما من أن تقطعا بمثل هذه السخافات التي لا تجدى ، وتفسداه بهذه الحماقات التي تضر وتردى . وإياكما والقضاء بالنجوم والتكهن فإن ذلك ( ٧٩ ب ) لمن صدقه مخرج عن الدين ومدخل له في جملة المارقين .

( ١٧ ) وأما تعديل الكواكب وتبيين أشخاصها ومعرفة أوقات طلوعها وغروبها وتعيين منازلها وبروجها ، وأوقات نزول الشمس والقمر بها ، وترتيب درجاتها للاهتداء به ، وتعرف الساعات وأوقات الصلوات بالظلال وبها ، فإنه حسن مدرك ذلك كله بعلم الحساب مفهوم ، قال الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ » (١) . وقال عز من قائل : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (٢) .

( ١٨ ) وأما القسم الثاني مما يجب أن تكونا عليه وتتمسكا به ، فإن يلتزم كل واحد منكما لأخيه الإخلاص والإكرام ، والمراعاة في السر والعلانية ، والمراقبة في الغيب والمشاهدة ، ويلتزم أكبركما لأخيه الإشفاق عليه ، والمصارعة إلى كل ما يحبه ، والمعاضدة فيما يؤثره ، والمسماحة لكل ما يرغبه ، ويلتزم

(١) سورة الأنعام (٦) آية رقم ١٧

(٢) سورة يونس (١٠) آية رقم ٥

أصغر كما لأخيه تقديمه عليه ، وتعظيمه في كل أمر بالرجوع إلى مذهبه ، والاتباع له في سره وجهه ، وتصويب قوله وفعله ، وإن أنكر منه في الملاماً أمراً يريد ، أو ظهر إليه خطأ فيما يقصده ، فلا يظهر إنكاره عليه ، ولا يجهر في الملام بتخطئته ، وليبين له ذلك على انفراد منهما ، ورفق من قولها ، فإن رجع إلى الحق وإلا فليتبعه على ( ١٨٠ ) رأيه فإن الذي يدخل عليكما من الفساد باختلافكما أعظم مما يحذر من الخطأ مع اتفاقكما ما لم يكن الخطأ في أمر الدين - فإن كان في أمر الدين فليتبع الحق حيث كان ، وليثابر على نصح أخيه وتسديده ما استطاع ولا يحل يده عن تعظيمه وتوقيره ، ولا يؤثر أحدكما على أخيه شيئاً من عرض الدنيا ، فيدخل بأخيه من أجله ، ويعرض عنه بسببه ، أو ينافسه فيه ، ومن وسع عليه منكما في دنياه فليشارك بها أخاه ، ولا ينفرد بها دونه ، وليحرص على تسمير مال أخيه كما يحرص على تسمير ماله . وأظهرا التعاضد والتواصل والتعاطف والتناصر حتى تعرفا به ، فإن ذلك مما ترضيان به ربكما وتغيظان به عدوكما ، وإياكما والتنافس والتقاطع والتدابر والتحاسد وطاعة النساء في ذلك فإنه مما يفسد دينكما ودنياكما ، ويضع من قدركما ، ويحط من مكانكما ، ويحقر أمركما عند عدوكما ، ويصغر شأنكما عند صديقكما . ومن أسدى منكما إلى أخيه معروفاً أو مكارمة أو مواصلة فلا ينتظر مقارضة عليها ، ولا يذكر ما أتى منها ، فإن ذلك مما يوجب الضغائن ويسبب التباغض ، ويُقَبِّحُ المعروف ، ويحقر الكبير ، ويدل على المقت والفساد ودناءة الهمة .

(١٩) وإن أحدكما زل وترك الأخذ بوصيتي في برِّ أخيه ومراعاته فليتلافى الآخر ذلك بتمسكه بوصيتي ، والصبر لأخيه ، والرفق به ، وترك المقارضة له على جفوته ، والمتابعة له على سوء معاملته ( ٨٠ ب ) فإنه يحمده عاقبة صبره ، ويفوز بالفضل في أمره ويكون لما يأتيه أخوه كبير تأثير في حاله .



(٢٠) واعلموا أني قد رأيت جماعة لم تكن لهم أحوال ولا أقدار ، أفام أحوالهم ، ورفع أقدارهم اتفاقهم وتعاضدهم ، وقد رأيت جماعة كانت أقدارهم سامية ، وأحوالهم نامية ، تحق أحوالهم ، ووضع أقدارهم اختلافهم ، فاحذروا أن تكونوا منهم . ثم عليكم بمواصلة بنى أعمامكما وأهل بيتكما والإكرام لهم ، والمواصلة لكبيرهم وصغيرهم ، والمشاركة لهم بالمال والحال ، والمناورة على مهاداتهم ، والمتابعة لزيارتهم ، والتعاهد لأموالهم ، والبر لكبيرهم ، والإشفاق على صغيرهم ، والحرص على نماء مال غنيهم ، والحفظ لعيبتهم ، والقيام بجوانحهم دون اقتضاء لجازاة ، ولا انتظار مقارضة ، فإن ذلك مما تسودان به في عشيرتكما ، وتعظان به عند أهل بيتكما . وصلا رحمكما وإن ضعف سببها ، وقربا ما بعد منها ، واجتهدا في القيام بحقها ، وإياكما والتضييع لها ، فقد روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : مَنْ أَحَبَّ الدَّسَأَ فِي الْأَجْلِ وَالسَّعَةَ فِي الرِّزْقِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ . وهذا مما يشرف به ملتزمه ، ويعظم عند الناس معظمه ، وما علمت أهل بيت تقاطعوا وتدابروا إلا هلكوا وانقرضوا . ولا علمت أهل بيت تواصلوا وتعاطفوا إلا نموا وكثروا وبُورِكَ لهم فيما حاولوا .

ثم الجار عليكم بحفظه (١٨١) والكف عن أذاه ، والستر لعورته ، والإهداء إليه ، والصبر على ما كان منه ، فقد روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقِهِ . وروى عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . واعلموا أن الجوار قرابة ونسب ، فتحببا إلى جيرانكما كما تتحببا إلى أقاربكما - ارعيا حقوقهم في مشهدهم ومغيبهم ، وأحسنوا إلى فقيرهم ، وبالغا في حفظ غيبهم ، وَعَلَّمَا جاهلهم . ثم من علمتا من إخواني وأهل مودتي فإنه يتعين عليكم مراعاتهم وتعظيمهم ، وبرهم وإكرامهم ومواصلتهم ، فقد روى عن عبد الله ابن عمر أنه حدث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : إِنَّ أَبْرَّ الْبِرِّ

أن يصل الرجل أهل وُدِّ أبيه . ثم إخوانكما عاملاً بالإخلاص والاكرام وقضاء الحقوق ، والتجافى عن الذنوب ، والكتمان للأسرار . وإياكما أن تحدثا أنفسكما أن تنتظرا مقارضة من أحسنتا إليه وأنعمتا عليه ، فإن انتظار المقارضة تمسح الصنعة ، وتعيد الأفعال الرفيعة وضعيفة ، وتقلب الشكر ذمًا ، والحمد مقننًا ، ولا يجب أن تعتقدا معاداة أحد ، واعتمدا التحرز من كل أحد ، فمن قصدكما بمطالبة أو تكرر عليكما بأذية فلا تقارضاه جهدكما ، والتزما الصبر له ما استطعما ، فما التزم أحد الصبر والحلم إلا عز ونصر ، ومن بغى عليه ( ٨١ ب ) لينصرنه الله ، وقد استعملت هذا — بفضل الله — مراراً فحمدت العاقبة ، واغتبطت بالكف عن المقارضة ، ولا تستعظما من حوادث الأيام شيئاً ، فكل أمر ينقرض حقير ، وكل كبير لا يدوم صغير ، وكل أمر ينقضى قصير . وانتظرا الفرج ، فإن انتظار الفرج عبادة ، وعلمًا رجاء كما بربكما وتوكلا عليه ، فإن التوكل عليه سعادة ، واستعينا بالدعاء والجثا إليه في البأساء والضراء ، فإن الدعاء سفينة لا تعطب ، وحزب لا يغلب وجد لا يهرب .

( ٢٢ ) وإياكما أن تستحيلا عن هذا المذهب ، أو تعتقدا غيره ، أو تتعلقا بسواه ، فتهلكا وتحسرا الدين والدنيا ، وربما دعوتما في شئٍ فنالكما مع الدعاء معرة ، ووصلت إليكما مضرة ، فازدادا حرصاً على الدعاء ، ورغبة في الاخلاص والتضرع والبكاء ، فإن <sup>(١)</sup> نالكما من المضرة بما سلف من ذنوبكما ، واكتسبتماه من سيئ أعمالكما ، ومع ذلك فالذى ألهمكما إلى الدعاء ووفقكما لآبد أن يحسن العاقبة لكما ، وقد نجما كما بدعائكما عن الكثير ، وصرف به عنكما من البلاء الكبير .

( ٢٣ ) وإذا أنعم عليكما ربكما بنعمة فتنقياها بالإكرام لها ، والشكر عليها ، والمساهمة فيها ، واجعلها عوناً على طاعته ، وسبباً إلى عبادته ، والحذر الحذر

(١) ربما تكون كلمة ( ما ) ساقطة من الناسخ لأن السياق يقتضيها .

من أن تهينا نعمة ربك فتركك مدمومين ، وتزول عنك ممقوتين ، روى عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : يا عائشة أحسنى جوارِ نِعَمِ الله تعالى فإنها قل ( ١٨٢ ) ما زالت من قوم فعادت إليهم . وإياكما أن تظفكما النعمة فتقصرا عن شكرها أو تنسها حقها ، أو تظنا أنكما نلتماها بسعيكما ، أو وصلتما إليها باجتهادكما ، فتعود نعمة مؤذية ، وبلية عظيمة .

( ٢٤ ) وعليكما بطاعة من ولاء الله أمركما فيما لا معصية فيه لله تعالى فإن طاعته من أفضل ما تتمسكان به وتعتصمان به ممن عاداكما ، وإياكما والتعريض للخلاف لهم ، والقيام عليهم ، فإن هذا فيه العطب العاجل ، والخزى الآجل ، ولو ظفرتما في خلافكما ، ونفذتما فيما حاولتما لكان ذلك سبب هلاككما لما تكتسبانه من المآثم ، وتحدثان على الناس من الحوادث والعظائم ، ثم من سعيكما له ووثقتما به لا يقدم شيئاً على إهلاككما ، والراحة منكما ، فإنه لا يأمن أن تحدثا عليه ما أحدثتما له ، وتنهضان بغيره كما نهضتما به — فالتزما الطاعة وملازمة الجماعة ، فإن السلطان الجائر الظالم أرقق بالناس من الفتنة وانطلاق الأيدي والألسنة . فإن رابكما أمر ممن ولى عليكما ، أو وصلت منه أذية إليكما فاصبرا وانقبضا ، وتحميلا لصرف ذلك عنكما بالاستنزال والاحتمال والإجمال والا فخرجنا عن بلده إلى أن تصلح لكما جهته ، وتعود إلى الإحسان إليكما نيته .

( ٢٥ ) وإياكما وكثرة التظلم منه والتعرض لذكره بقبيح يؤثر عنه فإن ذلك ( ٨٢ ب ) لا يزيدك إلا حنقاً وبغضة فيكما ، ورضى بأضراره بكما ، وابدأنا بعد سد هذه الأبواب عنكما بترك منافسة من نافسكما ، ومطالبة من طالبكما ، فإنه قد يبدأ بهذه المعاني من يعتقد أنه لا يتوصل منها إلى محذور ، ولا يتشبت منها بمكروه ، ثم يفضى الأمر إلى ما لا يريد ولا يعتمد من مخالفة الرئيس الذي يقهر من ناوؤه ويغلب من غالبه وعاداه ، وإن رأيتما أحداً قد خالف من ولى عليه ، أو قام على من أسند أمره إليه فلا ترضيا فعاه ، وانقبضا عنه ،

وأغلقنا على أنفسكم الأبواب ، واقطعنا بينكم وبينه الأسباب حتى تنجلي الفتنة وتفضى الحنة .

(٢٦) وإياكم والاستكثار من الدنيا وحطامها ، وعليكم بالتوسط فيها ، والكفاف الصالح الوافر منها ، فإن الجمع لها ، والاستكثار منها مع ما فيه من الشغل بها ، والشغب بالنظر فيها ، يصرف وجوه الحسد إلى صاحبها ، والطمع إلى جامعها ، والحق على المنفرد بها ، فالسلطان يتمنى أن يزل زلة يتسبب بها إلى أخذ ما عظم في نفسه من ماله ، والفاسق مرصد لخيانته واغتياله ، والصالح ذام له على استكثاره منه واحتفاله ، يخاف عليه صديقه وحميمه ، ويبغضه من أجله أخوه شقيقه ، إن منعه لم يعدم لأئماً ، وإن بذله لم يجد راضياً ، ومن رزق منكم مالا فلا يجعل في الأصول إلا أقله ، فإن شغبها طويل ، وصاحبها (١٨٣) ذليل ، وليست بمال على الحقيقة إن تعاب على الجهة عدو وحال بينه وبينها ، وإن احتاج إلى الانتقال عنها تركها أو ترك أكثرها .

(٢٧) ومن احتاج منكم فليجمل في الطلب فإنه لا يفوته ما قدر له ، ولا يدرك ما لم يقدر له ، وقد ذكر الله — تعالى — ما وعظ به العبد الصالح ابنه في مثل هذا فقال : « يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » (١) واجتنباً صحة السلطان ما استطعنا ، وتحرياً البعد منه ما أمكنكم ، فإن البعد عنه أفضل من العز بالقرب منه ، فإن صاحب السلطان خائف لا يأمن ، وخائف لا يؤمن ، ومسى إن أحسن ، يخاف منه ويخاف بسببه ، ويتهمه الناس من أجله ، إن قرب فتن ، وإن أبعد أحزن ، يحسدك الصديق على رضاه إذا رضى ، ويتبرأ منك ولدك ووالدك إذا سخط ، ويكثر لأموك إذا منع ، ويقل

شاكروك<sup>(١)</sup> إذا شبع — فهذه حال السلامة معه ، ولا سبيل إلى السلامة ممن يأتي بعده ، فإن امتحن أحداً بصحبته ، أو دعته إلى ذلك ضرورة فليثقل من المال والحال ، ولا يفتب عنده أحداً ، ولا يطالب عنده بشراً ، ولا يعص له في المعروف أمراً ، ولا يستنزله إلى معصية الله تعالى ، فإنه يطلبه بمثلها ، ويصير عنده من أهلها ، وإن حظى عنده بمثلها في الظاهر ( ٨٣ ب ) فإن نفسه تمقتة في الباطن .

( ٢٨ ) ولا يرغب أحداً في أن يكون أرفع الناس درجة ، وأتمهم جاهاً ، وأعلام منزلة ، فإن تلك حال لا يسلم صاحبها ، ودرجة لا يثبت من احتلها . وأسلم الطبقات الطبقة المتوسطة ، لا تهتضم من دعة ، ولا ترمق من رفعة ، ومن عيب الدرجة العليا ان صاحبها لا يرجو المزيد ولا كنه يخاف النقص ، والدرجة الوسطى يرجو الازدياد ، وبينها وبين المخاوف حجاب ، فاجعلا بين أيديكما درجة يشغل بها الحسود عنكما ، ويرجوها الصديق لكما .

( ٢٩ ) ولا يطلب أحداً ولاية فإن طلبها شين ، وتركها لمن دعى إليها زين ، فمن امتحن بها منك فلتكن حاله في نفسه أرفع من أن تحدث فيه بأوا ، أو يبدى بها زهواً ، وليعلم أن الولاية لا تزيد رفعة ، ولا كنها فتنة ومحنة ، وأنه معرض لأحد أمرين : إما أن يعزل فيعود إلى حالته ، أو يسيء استدامة ولايته فيقبح ذكره ، ويثقل وزره ، وإن استوت عنده ولايته وعزله كان جديراً أن يستديم العمل فيبلغ الأمل ، أو يعزل لاحسانه فلا يحط ذلك من مكانه ، وأقلا مباحة الإخوان وملابستهم ، والمتابعة في الاسترسال معهم ، فإن الأعداء أكثر ممن هذه صفته ، وقل من يعاديك ممن لا يعرفك ولا تعرفه ،

(١) وردت في المخطوط هكذا — يحسدك الصديق على رضاه إذا رضى ، ويتبرأ منك ولدك ووالدك إذا سخط ويكثر لامحك إذا منع ، ويقبل شاكروك إذا شبع — بكاف الخطاب ، وأعتقد أن الصواب أن تكون بهاء الغائب حتى يكون الكلام على وتيرة واحدة .

فهذا الذى يجب أن تمتثلاه وتلتزمه ولا تتركاه لعرض ولا لوجه طمع ، فربما (١٨٤) عرض وجه أمر يروق فيستزل عن الحقائق بغير تحقيق ، وآخره يظهر من سوء العاقبة ما يوجب الندم حيث لا ينفع ، ويتمنى له التلافي فلا يمكن فإن فقدتما وصيتي هذه ونسيما معناها فعليكما بما ذكر الله تعالى فى وصية لقمان لابنه فان فيها جماع الخير . وهى : « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . وَلَا تُصَعِّرْ<sup>(١)</sup> خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ »<sup>(٢)</sup> . وإني لأوصيكما وأعلم أنى لن أغنى عنكما من الله شيئاً . « إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ »<sup>(٣)</sup> . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

كملت الوصية المباركة والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله

الطيبين وصحابه المنتخبين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم [الدين] ، وذلك

فى يوم الخميس السابع لشهر ذى حجة مختتم عام تسعة وأربعين وسبعائة

جودة عبد الرحمن هلال

(١) وردت فى الأصل تصاعر . (التحرير)

(٢) سورة لقمان (٣١) آية رقم ١٧

(٣) سورة يوسف (١٢) آية رقم ٦٧